نوور عيني

المحاضرة التاسعة

الشخصية في الفكر الاجتماعي والانثروبولوجي

مقدمة

يكُمن أهمية هذا الفصل من خلال رؤية أنثروبولوجية إلى معالجة ما يتصل بمقومات بناء الذات العربية، والتي هي نتاج لمجموعة من الخصائص المتباينة والمتفاعلة في إطار البيئة (بدوية، زراعية، عمرانية، حضرية)

فالذات العربية (هي نتاج مجتمع شديد التنوع انتقالي زمانيًا متمسك، متطلع تجاه المستقبل انتقالي مكانيًا الشرق والغرب معًا)

والهدف من ذلك معالجة رؤية الذات العربية لنفسها في ضوء ثقافتها وقيمها والجوانب المتبادلة بين قيم الذات العربية وقيم الثقافة الأوروبية وهي معقدة قائمة على تاريخ طويل من الصراع والعنف والتنافس فالغرب ترى مجتمع الصحراء الذي يعيش فيه العربي لا يسمح له بالتطور والرقي وفي المقابل تجسدت صورة الغربي لدى العربي على أنه مستعمر يتمتع بقيم التعصب والهيمنة

وقد طرحت مؤخرا قضية التبادل الحضاري بين مجتمعات حوض البحر المتوسط ليس على المستويات الرسمية فقط وإنما أيضا على مستويات الشعوب. وجاء ذلك للرغبة في تأكيد على أهمية التعاون وضرورة ملحة من أجل إنشاء هياكل غير حكومية تتمتع بكامل الصلاحيات في التخطيط والفعل والتبادل.

وكانت الاستجابة غير الرسمية متمثلة في الندوة الدولية والتي عقدت في تونس وانتهت الندوة إلى توصيات ومتطلبات فرضتها الرغبة الجماعية، والتي من بينها، التأكيد على الديموقراطية كشرط لاستمرار التنمية والسلام والتضامن من أجل إقامة نظام إقليمي قوامه العدل والحرية والديموقراطية.

وعلى الرغم من نقاط الخلاف أو الاتفاق الذي يثيرها التبادل الحضاري بين مجتمعات البحر الأبيض المتوسط، إلا أن الرؤية الانثربولوجية تنطلق من مبدأين أساسيين:

أولهما: أن مجتمعات وشعوب المتوسط تمثل إرثًا حضاريًا مشتركًا ومهدا لثلاثة أديان سماوية، وسواء قبلنا الإرث أم أبيناه إلا انه في الحقيقة واقع التاريخ والزمن والتكوين الحضاري .

ثانيهما: أن التأثير الحضاري المتبادل بين شعوب المتوسط أمر لا مفر منه فلم يتوقف التأثير على التبادل بين شعوبه فقط، وانما كان للحضارتين الكبيرتين اليهودية والمسيحية والحضارة العربية والإسلامية أثرهما الواضح في التأثير في مجتمعات وشعوب أبعد عن الدائرة الإقليمية .

وعلى الرغم من ان الثقافة بين شعوب المتوسط اتسمت بعلاقة تبادلية منذ فجر التاريخ وبرهنت على ذلك الحضارات الفرعونية والإغريقية ، ثم جاءت العربية الإسلامية ثم حضارة وسط أوروبا والتي تمثلت في الإمبراطورية النمساوية وكان ذلك عاملا للتجزئة لاسيما بعد جاذبت الشعوب الأوروبية تيارات الفكر المسيحي الرأسمالي، وتيارات الفكر الماركسي الشيوعي الاشتراكي .

حيث أن الفكر العربي لا يطرح السؤال الهام حول مستقبلة في اطار تبادلية العلاقات بينه وبين الآخرين الا اذا كان حاضره يعاني أزمة حادة ، متعددة الأبعاد ، ويستشعر خطراً حقيقياً يهدد ذاته وهويته وأنساق .

لهذا اصبح طرح السؤال المتعلق بهوية الذات يعتبر علامة من علامات أزمة الأنظمة القيمية الثقافية ، ولكن الخوف كل الخوف ان يشعرنا هذا الارتداد بعجز الأنا عن مواجهة تحدياتها وهنا يتجسم الخوف الاكبر من الذات ، فتغدو صورتها صورته التي تحلم بها في عملية الاستبدال .

حيث لاشك ان الاستخدام الذكي للعلوم الانسانية والاجتماعية كفيل بتقديم تفسيرات وتحليلات لكافة الابعاد المتداخلة .

ثم يكون العرب منشغلون دائماً بمشكلة تحديد الهوية أو الذات أو الأنا في مواجهة الآخر ، لهذا كان علينا ان نطرح تساؤلات حول استشراف وتحليل بعض جوانب العلاقة الآتية :

ما مدى الصلة وطبيعتها بين العقل العربي والعقل العالمي ان صح التعبير ؟

ماهي المعاني والدلالات التي تربطنا نحن العرب بماضينا وتاريخنا الطويل المزدحم بالنجاحات والاخفاقات ؟

ما علاقتنا بماضينا وكيف نرى ونفهم الكون والمجتمع والانسان ؟

هل تعتمد الذات العربية بتكامل بناء عناصرها ومقوماتها في ضوء ثقافتها المحلية أم ان الثقافة الاوروبية لها دور في ذلك ؟

وللاجابة على هذه التساؤلات لابد أن نستعرض عناصر هذا الفصل :

اولاً : الشخصية في الفكر الاجتماعي والانثروبولوجي

اكتسب التفكير الأنثروبولوجي المعاصر أهمية خاصة من خلال اهتمام الباحثين بدراسة وتحليل موضوع الثقافة والشخصية ، حيث تمثل الشخصية متغيراً سيكولوجياً ، وموضوعاً أساسياً لدى معظم الدراسات والبحوث الأنثروبولوجية التي بدأت في منتصف العشرينات من هذا القرن ، وخصوصاً في الأعمال العلمية لكل من سيلجمان مالينوفسكي وفرانزبواس وماحريت ميد وإدوارد سابير و روث بندكيت وغيرهم .

وجاءت أهمية تلك الدراسات في موضوع الثقافة والشخصية من خلال تركيزها على فهم القضايا الأساسية المرتبطة بمفهوم الطابع القومي أو الشخصية القومية .

وهو مفهوم الذي نسج في بداية الامر كرد فعل للهندسة الاجتماعية لبعض الادارات الحكومية و القضايا الامبيريقية الناجمة عن نتائج الحرب العالمية الثانية ونتائج الحرب الباردة بين الشعوب .

واذا كان الانثروبولوجيين يتفقون حول الدور الذي تلعبه الثقافة في تنميط الشخصية الا انهم يختلفون في تحديد موقف الفرد بالنسبة للثقافة ودور العملية التربوية في هذا الموقف فعندما نلاحظ مثلا ان إبرام كاردينر يركز على دور الفرد كعامل دينامي في الثقافة تتيح له العملية التربوية ان يتفاعل مع ثقافته ويتقبل انماطها فعلي العكس من ذلك ترى روث بند يكت ان الفرد يولد صفحة بيضاء خالية من كافة الانطباعات وان الثقافة هي التي تضع بصماتها وتأثيرها على تلك الصفحة لتطبع فيها محددات ومعالم الشخصية من خلال الخصوصيات والعموميات الثقافية .

ويعد موضوع الشخصية القومية من الموضوعات التي اصبحت تشغل بال الكثيرين من العلماء الاجتماعيين الذين ينتمون الى تخصصات وعلوم اجتماعية مختلفة. وتعنى دراسة الشخصية القومية بوجه عام دراسة اكثر سمات الشخصية شيوعا في أي مجتمع للوصول الى تقديم صورة مؤلفة من هذه السمات .

وتؤرخ الانثروبولوجيا انطلاقه دراسات الطابع القومي والشخصية الى فترة الحرب العالمية الثانية حيث حاول عدد من الانثروبولوجيين خلال فترة الحرب دراسة وفهم المحددات الثقافية للاختلافات القائمة بين الشخصيات القومية وذلك من خلال التفهم الواعي للسمات العامة المشتركة ولكن من الجدير بالكر انه ليس هناك خلاف بين الباحثين في الحاجه العملية التي املتها المصالح السياسية لبعض الدول كالولايات المتحدة الامريكية على وجه الخصوص كان لها اكبر الاثر في دفع الدراسات وبحوث الشخصية القومية فقد ادت الحرب العالمية الثانية الى ضرورة ان يفهم الامريكيون اليابانيين بغرض السيطرة على الحرب وللوصول على سلم دائم .

وتحاط دراسات الشخصية القومية بمحاذير ومحددات ومواقف تجعل من الصعب على الباحثين الاقدام بسهولة نحو دراسة الموضوع لذا تجدهم ينقسمون الى رأيين او فريقين هما :

الاول: ويميل انصاره الى رفض المفهوم تماما بل ولا يقبلون شرعية استخدامه في البحوث العلمية الاجتماعية على اساس ان هذا الميدان مثقل بالتحيزات الايديولوجية ومزدحم بمحاولات التشوية المعتمدة لبعض الشعوب من جهة ومحاولات التمجيد غير المبرر لبعض الشعوب من جهة اخرى .

ثانيا : ويميل انصاره الى قبول المفهوم واستخدامه على اساس نفعه واسهامه في اللقاء الاضواء على مكونات وسمات الشخصية القومية على ان يحاط هذا الاستخدام بكل الضمانات العلمية التي تكفل عدم التورط في تبنى تعميمات يسندها اساس من الوقائع الملاحظة ؟ والدراسات الميدانية المتأنية .

عندما تطبق القواعد المنهجية الخاصة بالبحث العلمي عن دراسات وبحوث الشخصية القومية فصحه تلك التحليلات والتفسيرات لا تحدد محاكاتها الا بمقارنه مع سمات شخصيه قوميه اخرى ، ونقطه بداية دراسة السلوك السياسي والاجتماعي والاقتصادي باستخدام منهج التحليل الثقافي ، ان دراسة الشخصية العربية تثير العديد من المشكلات النظرية والمنهجية ، ان غالبيه الدراسات والكتابات العلمية العربيه غالبيتها ذات طابع تأملي تنقصها اساليب البحث الميداني ، وان الدراسات التي تمت كانت تعالج الشخصية القومية لشعب عربي دون اخر ثم الشخصية العربية تميل الى ازاحه المسؤولية عن ذاتها وتسقطها على غيرها حيث ترجع هزيمتها الى الى عوامل خارجيه التي حققت لها بالهزيمة .

و (حامد عمار) يرى ان الشخصية العربية انها فهلويه لا تتكيف بسرعه لمختلف المواقف ، تتميز بجانبين متلازمين هما :

1. المرونة والفطنة والقابلية لهضم والتمثيل الجديد.

2. المثابرة السطحية والمجاملة العابرة .

كما انها تنزع الى الحماس المفاجئ والاقدام العنيف والاستهانة بالصعاب في اول الطريق ، وانها تتمسك بقيم الحياء والخوف من الفضيحة (عند الفشل) اكثر من ان تتمسك بالواقعية والموضوعية .

و هذه المجتمعات في سلوكها ونظراتها تركز على نمط الحياه التقليدي الاتباعي ، جعلت الفرد في هذه المجتمعات انسانا محافظا عقلا وجسدا في افكاره وردود افعاله يدور في فلك محدد اتباعي ، يبقي القديم على قدمه يحافظ عليه وينقله الى ابناءه .

ونجد أنّ علم الاجتماع معنيّ بالشخصيّة بوصفها أحد أسس النظام الاجتماعي؛ فالمجتمع يقوم على علاقات متبادلة يكون الفرد فيها عنصرًا مهمًا وتؤثر شخصيته في تفاعله مع المجتمع، كما يؤثر المجتمع –بوصفه منظومة شاملة للثقافة والحياة– على بناء الشخصيّة وتكوينها.

وتعني الشخصية «التكامل النفسي الاجتماعي للسلوك عند الكائن الإنساني الذي تُعبّر عنه العادات والاتجاهات والآراء»، فثمّة ربط لأفعال الإنسان الفردية والاجتماعية بما ينتج عنها من نظم اجتماعية تتمثل في العادات والاتجاهات؛ وكأنّ المجتمع بعامة يمثل شخصيّة لها نمط معين يمكن لهذا النمط أن يُفرز شخصيات تنتمي إليه مع مراعاة الاختلافات النوعية المتمثلة في السمات النفسيّة. ويُعنى علم الاجتماع بالجماعة التي تتكون من الأشخاص، «ودراسة الشخص تكون ضمن إطار المجموعة التي ترتبط بسمات مشتركة وبعوامل تتحكم في نشاطها» وقد اهتم علم الاجتماع بهذه الجوانب من الشخصية التي لا تظهر إلا مع الجماعة. بوصف «الشخصيّة هي عنصر البناء الاجتماعي في كافة مستويات المجتمع»

يقول سابير: «هناك علاقة اساسية بين الثقافة والشخصية. فلاشك في ان انماط الشخصية المختلفة، تؤثر تأثيرا عميقا في تفكير عمل المجموعة بكاملها، وعملها. هذا من جهة، ومن جهة اخرى، تترسخ بعض اشكال السلوك الاجتماعي، في بعض الانماط المحددة من انماط الشخصية، حتى وان لم يتلاءم الفرد معها الا بصورة نسبية»

وهنا يتجلى تأثير الثقافة القوي والفاعل في تكوين شخصية الانسان، الفرد اولا، والمجتمع ثانيا، في الجوانب التالية:

1_ توفر الثقافة للفرد، صور السلوك والتفكير والمشاعر، التي ينبغي ان يكون عليها، ولاسيما في مراحله الاولى، بحيث ينشأ على قيم وعادات تؤثر في حياته، بحسب طبيعة ثقافته التي عاش فيها.

2_ توفر الثقافة للأفراد، تفسيرات جاهزة عن الطبيعة والكون، واصل الانسان ودورة الحياة.

3_ توفر الثقافة للفرد المعاني والمعايير التي يستطيع ان يميز _ في ضوئها _ ما هو صحيح من الامور، وما هو خاطئ.

4_ تنمي الثقافة الضمير الحي عند الافراد، بحيث يصبح هذا الضمير _ فيما بعد _ الرقيب القوي على سلوكياتهم ومواقفهم.

5_ تنمي الثقافة المشتركة في الفرد، شعورا بالانتماء والولاء، فتربطه بالآخرين في جماعته بشعور واحد، وتميزهم من الجماعات الاخرى.

6- واخيرا، تكسب الثقافة الفرد، الاتجاهات السليمة لسلوكه العام، في اطار السلوك المعترف به من قبل الجماعة.

ان ردود فعل الفرد تجاه النظام، هي التي تؤدي الى نموذج السلوك الذي ندعوه الشخصية». وتصنف النظم في انظمة اولية ونظم ثانوية. فالنظم الاولية: تنشأ عن الشروط التي يمكن ان يتحكم فيها الفرد، (كالغذاء وانظمة التعليم المختلفة). اما النظم الثانوية: فتنشأ من اشباع الحاجات وانخفاض التوتر الناجم عن النظم الاولية. مثال ذلك: اعتقاد بعض الشعوب بآلهة، تطمئن القلق الناجم عن حاجة هذه الشعوب الى تأمين موارد غذائية دائمة. ان ما يميز هذا الرأي عما سبقه، هو صفته الديناميكية، لان بنيان الشخصية الاساسية ينتج عن تحليل النظم الاجتماعية، وتحليل اثرها على الافراد في ثقافة بعد اخرى

اسئلة المحاضرة

السؤال الاول:

((هناك علاقة أساسية بين الثقافة والشخصية))

اشرحى / اشرح العبارة السابقة بالتفصيل